مصر والبلاد العربية

للدكتور زكى مبارك

أشكر لأدبكم وكرمكم التفضل بالحضور للتسليم على صديق كان اغترب مدة فى سبيل خدمة العلم فى العراق

وأعتذر عن كلمة « اغترب » وأقترح حذفها من المعاجم فهى كلمة تفردت بها اللغة العربية ، ولا يكاد يوجد لها نظير فى اللغات الأجنبية،وعن لغة العرب نقلت إلى الفارسية والتركية وهى كلمة حزينة يشمل سوادها فى كلام من يقول :

وكل محبّ قد سـلا غير أننى غريب الهوى ياويح كل غريب

وفى كلام من يقول :

أنا فى الغـربة أبكى ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجى من بلادى بمصيب
عجباً لى ولتركى وطناً فيـه حبيبي

ولى مع هذه الكلمة الحزينة تاريخ ، فقد سيبت أول معركة أدبية شهدتها فى العراق ، ذلك بأنى كنت نشرت مقالا فى مجلة الرسـالة عنوانه « القلب الغريب فى ليلة عيد »

فعزّ على أدباء العراق أن أقول إنى فى بلدهم غريب ، ودار الجدل أشهراً حول ذلك المقال فى الجرائد والمجلات. والحنين إلى الوطن مرض لا يصيب غير الضعاف فى عالم الانسان والحيوان ، فأرجو أن يكون فينا من القوة مايعصمنا من هذا المرض العضال

أنا ما كنت غريباً فى العراق ، وإنما كنت بين أهلى وقومى. وإذا صح للمصرى أن يشعر بالغربة وهو فى وطن عربى مثل العراق فماذا ترونه يصنع لو هاجر إلى بلد فى استراليا أو فى إحـدى الأمريكتين ؟

لقد آن المصرى أن يبرئ نفسه من ذلك المرض الذى يقضى بأن يتوجع حين تنقله الحكومة من القاهرة إلى حلوان ، آن للمصرى أن يفهم أن فى دمه روحاً عربياً يسوقه إلى الانتقال من أرض إلى أرض فى سبيل المنافع العلمية والأدبية. آن للمصرى أن يفهم أن رجولته لا تكتمل إلا إذا واجه المصاعب واستطاع أن يخلق لنفسه ولوطنه أصدقاء فى مختلف البلاد

وما أقول انى كنت أقوى من سائر الزملاء الذين تشرفوا بخدمة العلم فى العراق ، وإنما أقول إنى رضت نفسى على التخلق بأخلاق أسلافنا من العرب فرأيت الأرض كلها وطناً أصيلا ولم تجر كلمة الغربة على لسانى إلا تأثراً بالميراث الحزين الذى قضى بأن تنفرد لغتنا بكلمة « غريب » من بين سائر اللغات

ولما زار سعادة العشماوى بك مدينة بغداد دعا الأساتذة المصريين لسماع ما قد يكون عندهم من مقترحات أو شكايات ، فمضيت أبحث عمن أعرف منهم لأصدهم عن حضور ذلك الاجتماع فقد كنت أحب ألا يكون بيننا وبين حكومة العراق وسيط ولو كان ذلك الوسيط هو العشماوى بك الذى أحب العراق وأحبه العراق .

إن صداقتنا للعراق لاتزال فى أول عهد من عهود التكوين، وهى لا تزال فى حاجة شديدة إلى من يحرسها ويرعاها ، وهى تستحق الحراسة والرعاية لأنها رباط بين أمتين كانت بينهما صلات ودية من أقدم عهود التاريخ

ولا يعرف قيمة هذه الصداقة إلا من زار العراق. فأهل العراق بجودتهم المتينة يبعثون فينا شعور الثقة بالنفس ، ويفرضون علينا أن نؤمن بأن جهادنا فى سبيل العلم والمدنية لن يضيع

أهل العراق منا ونحن منهم . ولو تطلعت الأحجار لحدثتكم أن علماء العراق اتصلوا بمصر ونقلوا إليها علومهم ومعارفهم يوم أراد التتار أن يقرضوا حضارة بغداد

ولعل هـذا هو السبب فى أن مخارج الحروف لا تتفق بين أمتين عربيتين كما تتفق بين مصر والعراق

أهل العراق منا ونحن منهم؛ فالمؤلفات القديمة فى معاهد مصر هى فى الأغلب عراقية ، والمؤلفات الحديثة فى معاهد العراق هى فى الأكثر مصرية . فأرجو كم بالله أن تكونوا جميعا أنصارا للاخوة التى تربط بين مصر والعراق

وقد عجب بعض الناس حين رأونى أتصدى لدفع الأذى عن سمعة العراق، فاعرفوا إن شئتم أنى أدفع دينا ثقيلا. فأهل العراق فى

نص الخطاب الذى ألقاه فى حفلة تكريمه

أنديتهم وجرائدهم ومجلاتهم ومدارسهم يدفعون عن مصر قالة السوء ويخاصمون فى سبيلها كثيرا من الناس، ولو عرفتم من ذلك بعض ما عرفت لرأيتم أن من القليل أن ينهض كاتب أو كاتبان للاشادة بفضائل أهل العراق.

إن القاهرة تقوم فى العصر الحديث بالواجب الذى كانت تقوم به بغداد فى عصر بنى العباس، فمن واجب القاهرة أن تحمل من التكاليف ما حملت بغداد، بل من واجب القاهرة أن ترحب بمطلع اليوم السعيد الذى يقضى بأن يكون لها فى الشرق منافس قوى هو بغداد، فتفرد القاهرة بالزعامة الأدبية قد يضر أكثر مما ينفع، لأن التفرد بالتفوق قد يخلق عيوبا أيسرها الزهو والخيلاء والاطمئنان إلى أن ليس فى الامكان أبدع مما كان

وقد بدأت هذه العيوب تظهر مع الأسف، فأهل مصر شغلتهم ثقافتهم التى اتسمت وتشعبت عن التطلع إلى ما يبدع أهل العلم والأدب فى العراق وسورية ولبنان وفلسطين والحجاز واليمن والجزائر وتونس ومراكش وما إلى هؤلاء من البلاد العربية؛ وانصراف أهل مصر عن الأدب فى تلك البلاد يحجبهم عن تطور الحياة فى أقطار حية سيكون لها باذن الله مكان بين الأقطار التى تسود العالم فى المستقبل القريب

* * *

ومن الواجب فى مقامى هذا أن أوجه أنظاركم إلى حقيقة لا يختلف فى صحتها اثنان: تلك الحقيقة هى أن مصر تنفرد اليوم بالسيادة العقلية فى البلاد العربية. فمؤلفات مصر ومجلات مصر ليس لها مزاحم يخشى خطره فى تلك البلاد؛ وشعراؤنا وكتابنا هم الذين يقدمون الغذاء الأدبى لجمهور المتعلمين فى الأقطار العربية، وبفضل إقبال أولئك الاخوان على مؤلفات مصر ومجلات مصر استطاعت اللغة العربية أن تقف على قدميها بجانب اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية. فاللغة العربية هى اليوم لغة حية حقا وصدقا، وهى تكافح وتناضل لتسيطر وتسود. وما كان من الغريب أن تسيطر اللغة العربية فى أقطار كتب الله أن تستعرب منذ أجيال طوال، ولكن فساد الزمن وتوالى الأحداث والخطوب جعل سيادة اللغة العربية فى بلادها من الغرائب، فلنفهم ذلك ولنواصل الجهاد، ولنعرف أن من أعظم الشرف أن نكون فى الحياة من المجاهدين، ولنتذكر دائما أن انتصار اللغة العربية فى أوطانها هو البشير بأن تلك الأوطان تستمد من حيث تشعر أو لا تشعر لحياة مجيدة سترون أعلامها بعد حين

وإخواننا العرب يعجبون من تفرد مصر بالتفوق فى اللغة العربية، فان أذنوا شرحت لهم بعض أسرار هذا التفوق. فمصر هى الأمة الوحيدة التى استعربت استعرابا تاما، وصارت العربية لغتها الرسمية والقومية فى مدة ترجع إلى ثلاثة عشر قرنا. وهذا حظ لم يظفر بمثله المغرب ولا الشام ولا العراق، فما انقرضت اللغة البربرية فى المغرب، ولا اللغة السريانية فى الشام، ولا اللغة العبرانية فى فلسطين، ولا اللغة الكلدانية فى العراق

وإنا لنرجو أن تكون لمصر يد بيضاء فى رجوع اللغة العربية إلى بلاد فارس بفضل المودة الجديدة التى أنشأتها المعاهدة الملكية بين مصر وإيران. فمن المؤكد أن قادة الرأى فى تلك البلاد سيراعون عواطفنا مشكورين فلا يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير، كما فعل إخواننا الأتراك سامحهم الله حين استبدلوا الحروف اللاتينية بالحروف العربية

وقد وقع بينى وبين سفير إيران فى العراق عتاب حين رأيته أول مرة فى بغداد، ولم أكن أعرف أن الله سيخلق بيننا وبينهم صلات جديدة تجعل من الحق علينا أن نذكرهم بماضيهم الجميل فى خدمة لغة القرآن يوم كان منهم كبار النحويين وكبار اللغويين

إن فرنسا لها مدرسة فى طهران لنشر اللغة الفرنسية بين أهل إيران، فمتى يجىء اليوم الذى تقوم فيه مدرسة عربية فى وطن الجرجانى والتوحيدى وابن العميد؟

لقد ألفت كتابى النثر الفنى أول مرة باللغة الفرنسية وأنا فى باريس، وكان قلبى يفيض بالحزن الدامى كلما تذكرت أن أكثر من تحدثت عنهم فى كتابى كانوا رجالا نشأوا فى بلاد فارس، وأن لغة العرب فى تلك البلاد صارت غريبة الوجه واليد واللسان

وكذلك كان حالى حين ألفت كتاب التصوف الاسلامى فقد رأيت أن أرواح التصوف هبت علينا من الأقطار الفارسية

فيا أصدقائى الأعزاء فى إيران تذكروا ثم تذكروا وأنتم مسلمون أبرار أن اللغة العربية هى لغة القرآن ولغة الرسول، وتذكروا أن الأمم العربية لها فى العالم السياسى والأدبى

والاقتصادى موازين ، وأنها خليقة بأن تزيدكم قوة إلى قوة حين تراكم ترجعون باللغة العربية التى كان لها فى بلادكم أبناء وأحفاد وأسباط ...

تلكم مكانة مصر بين الأمم العربية والاسلامية ، وذلكم حظها بين الممالك والشعوب، وهذا التجاوب الأدبى بيننا وبين من نعرف ومن لا نعرف لم يقع من باب المصادفات ، وإنما هو علامة حب صادق يضمره لمصر من عرف فضلها من الرجال

وأخشى ، والحزن يفعم قلبى ، أن يكون ما ظفرنا به من المجد الأدبي ميراثاً تلقيناه عن أجدادنا النبلاء الذين ملأوا الدنيا بالتأليف والتصنيف وجعلوا مصر تاجاً تزدان به هامة اللغة العربية

أخشى ألا تكون لنا سياسة رشيدة تفكر دائماً فى حفظ مكانة مصر بين الأمم العربية . أخشى أن نجهل نعمة الله علينا فننسى أننا أغنى الأمم العربية بالأموال والرجال . أخشى ألا نعرف أن الجهاد فى سبيل اللغة العربية هو مجد أبقى على الزمن من الأهرام ومن قصر الكرنك وقصر أنس الوجود

إن اللغة العربية هى التى ستجعل لنا لسان صدق فى الآخرين، وهى التى ستسطر محامدنا على جبين الزمان

والذي أدعوكم إليه هو تجارة لا تعرف غير الربح ، فان كنتم فى ريب من ذلك فسيروا فى الأرض وانظروا كيف تذكر مصر بالحمد والثناء

إننى أفرض زيارة الشرق على رجلين : الأول وزير المعارف والثانى وزير الخارجية

أما وزير المعارف فهو اليوم معالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا ، وليته كان فى بغداد كما كنت فى بغداد يوم ظهور كتابه عن منزل الوحى . ليته كان هناك ليرى كيف استقبل البغداديون كتابه بموكب لم يعرفه القاهريون . وأما وزير الخارجية فهو اليوم دولة عبد الفتاح يحيى باشا ، وليته يرى كيف يأنس أهل بغداد إلى صوره الكاريكاتورية فى الجرائد والمجلات ، إنه لو رأى ذلك لعرف أن مصر لا تعيش وحدها وإنما تعيش فى أنس بأصدقائها فى الشرق

ولن أنسى اليوم الذى زرت فيه نادى المعارف فى بغداد مع سعادة الأستاذ طه الراوى ، فقد رأيت مكتب رئيس النادى يزدان بصورتين كريمتين : صورة الملك فاروق الأول وصورة الزعيم سعد زغلول

ولما زرت النجف أراد أدباؤه أن يقدموا إلى هدية فكانت تلك الهدية هى صورة الرجل الموفق محمد الشماوى بك، وكان زار النجف واستقبل فيه أكرم استقبال

ولما زرت الموصل رأيت رئيس نادى الجزيرة أحد تلاميذى القدماء فأحسست أننى فى دارى وبين أهلى

فيا أهل مصر ، متى تعرفون نعمة الله عليكم ؟ ومتى تؤدون للأمم العربية واجب الوفاء ؟

إن الذى كتب أن تكون عاصمتكم عروس الشرق هو وحده القادر على أن يجعلكم أهلا لرعاية العهد وحفظ الجميل

زكى مبارك

اقرؤا الريوارد الخالد

﴿ هكذا أُغنى ﴾

للشاعر الفذ محمود حسن إسماعيل

صدر حديثاً . ويقع فى ٢٥٠ صفحة من الورق الصقيل
المزود بالشكل والتهاويل الفنية الرائعة
يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، ومكتبة النهضة
المصرية وسائر المكاتب الشهيرة بمصر
ومن صاحبه بادارة الشؤون العامة بوزارة المعارف

ثمن النسخة الواحدة ١٠ ص

أطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من مكتبة الوفد ، شارع الفلكى (باب اللوق)
ومن المكتبات العربية الشهيرة